﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النور: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إظهارُ براءةِ عائشةَ رضوانُ الله عليها

بعد أن برَّأَ اللّٰهُ عائشةَ ﵂، ممّا قاله أصحابُ الإفك، وهدَّدهم وتوعَّدهم، ثم تاب على الذين تابوا؛ أظهر بعد ذلك براءة النَّبي ﷺ من أن تكونَ له أزواجٌ خبيثات؛ لأنَّ عصمته وكرامته على اللّٰه تأبى عليه ذلك، فمكانةُ الرسول ﷺ كافيةٌ في الدلالة على براءة زوجه، وطهارة أزواجه كلِّهنَّ، وهذا من الاستدلال على حال الشَّيء بحال مقارنه ومماثله[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾: "الخاءُ والباء والثاء أصلٌ واحد يدلُّ على خلاف الطيّب"[2]، وأَصْلُ الخَبيثِ في كَلام العَرَب: المكْروهُ والرديء، ونعت كلِّ شيء فاسد، فإنْ كانَ من الكلام؛ فهوَ الشَّتْمُ، وإن كانَ مِنَ الطَّعام؛ فهوَ الحَرام، وإنْ كانَ مِنَ الشَّراب؛ فهوَ الضّارُّ[3]، فهو على العموم ما يُكره رداءةً وخساسةً، ويكون في المعقولات، كما يكون في المحسوسات، وبذلك يتناول الباطلَ في الاعتقاد، والكذِبَ في المقال، والقبيح في الفعال، ثم فسَّره المفسِّرون بحسب خصوص الأماكن[4]، وذكروا أَنَّ الخَبيث والطَّيب في القُرْآن على ثَلاثَة أوجهٍ، أَحدِها: الحَرام، والحَلال، والثّاني: الكافِر، والمُؤمن، والثّالِث: كلمة الكُفْر، وكلمة الإِسْلام[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبث).
(3) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خبث).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (خبث).
(5) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر: 270 - 271.

وزاد بعضُهم أنَّ المعنى في هذه الآية: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾: لا يَتَكلَّمُ بالخبيثاتِ من الكلمات إلّا الخَبيثُ من الرِّجال والنِّساء، أو أنَّ الكلماتِ الخَبيثاتِ تَلْصَقُ بالخَبيثاتِ والخُبَثاءِ من الرِّجال والنِّساء، فأمّا الطّاهرونَ والطّاهِراتُ؛ فلا يَلْصَقُ بهمُ السَّبُّ، فالحديث يدور على الخبيثات من الأقوال، ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ الخبيثاتِ من النِّساء يَكُنَّ للخبيثين من الرِّجال[1]، وأنَّهم يكونون لهنَّ.

2) ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾: "الطاء والياء والباء أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف الخبيث"[2]، والطَّيِّبُ من الإنسان: مَن تعرّى مِن نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال[3]؛ ولذلك يُقال لكلِّ ما يلذُّ للنَّفس ممّا لا إثمَ فيه: طيّبٌ، من طعام، وريح، وأرض، وكلمة، وكسب حلال[4]، وامرأةٌ طَيِّبة؛ إذا كانَتْ حَصانًا عَفيفةً، وهي المرادة في هذه الآية: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾، فالطَّيِّباتُ مِنَ النِّساءِ لِلطَّيِّبينَ مِنَ الرِّجالِ[5]، وهم لهنَّ، أو أنَّ الأعمال الطَّيِّبَةَ تكون من الطَّيِّبينَ[6].

3) ﴿مُبَرَّءُونَ﴾: البُرْءُ والتَّبرّي: الانفصالُ من الشَّيء المكروهِ مجاورتُهُ، والتَّفصّي منه[7]، فأحد أصْلَيِ الباء والرّاء والهمزة: التَّباعد من الشَّيء ومُزايَلَتُهُ، ومنه البُرْءُ: السَّلامةُ من السَّقم، ومن العَيب والمكروه[8]، ومعنى ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ في هذه الآية يعود على عائشةَ رضوان اللّه عليها، وصفوان بن المعطل الذي رُميتْ به[9]، أو يعود على الطَّيّبين والطَّيّبات، ويكون المرادُ أنَّهم منزَّهون ممّا يُرمَون به[10].

4) ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: أصلُ الغَفْرِ: السَّترُ والتَّغطية، وهو عِظْمُ بابِه، وغفر اللّه ذنوبَهُ، أَي: سَترها، ولم يَفْضَحْهُ بها على رُؤوس المَلأ، وكلُّ شَيْء سترتَهُ؛ فقد غفرتَهُ، ومنه قولهم:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (خبث)، والزمخشري، الكشاف: 3/ 225.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طيب).
(3) الراغب، المفردات: (طيب).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 417، وابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (طيب).
(6) الراغب، المفردات: (طيب).
(7) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (برأ).
(8) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 238.
(10) ابن عادل، اللباب: 14/ 340.

اصبُغْ ثوبَكَ بِالسَّوادِ، فإنَّهُ أَغْفَرُ للوسخ، أَي: أَغْطَى لَهُ[1]، والغَفْرُ: إلباسُ ما يصونه عن الدَّنَسِ، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ من اللهِ هو أن يصون العبد مِن أن يمَسَّه العذابُ[2]، وكلُّ ما جاء في القرآن من التركيب؛ فهو من مغفرة الذُّنوب[3]، كما في هذه الآية، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾.

5) ﴿وَرِزْقٌ﴾: "الراء والزاي والقاف أصلٌ واحد يدلُّ على عطاءٍ لوقت، ثم يُحمل عليه غير الموقوت، فالرِّزق: عطاءُ اللّه جلَّ ثناؤه"[4]، وهو: ما يُنْتَفَعُ بهِ، وكلُّ من أجريتَ عليه جِرايةً؛ فقد رزقته رَزْقًا[5]، فهو يطلق تارَّة على العطاء الجاري نحو: رَزَق السلطانُ جندَهُ - ويكون دنيويًّا وأخرويًّا - وتارَّة على النَّصيب، وتارةً على ما يصل إلى الجوف، ويُتغذّى به، ويطلق على كل خيرٍ وصل إلى صاحبه من: العلم، والأموال، والجاه[6]، فالمراد بالرزق في الآية: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: هو العيش الهنيء في الجنَّة[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الطباعُ تحنُّ إلى ما يُشاكِلها

الخُبَثاءُ من الرِّجال والنِّساء لهم ألفاظٌ تناسبهم، وتتَّفق مع طباعهم، وأمّا الطيِّبون منهم؛ فلا يصدر منهم إلّا ما يوافقُ طبعَهم المستقيم، وذوقهم السليم، فكلُّ إناءٍ يَنضَح بما فيه، وهؤلاء لا يتزوَّجون إلّا مَن كان على شاكلتهم من النِّساء، فالطّيورُ على أشكالِها تقعُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية:

الـطّـيـورُ على أشكالها تقع

قولُ اللّه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ "كلامٌ مستأنَفٌ سيقَ

(1) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الراغب، المفردات: (غفر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: 3/ 1595.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(6) الراغب، المفردات: (رزق).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 211.

لتأكيد البراءة لعائشة، وتقبيحًا على من تكلَّم فيها، والمعنى: أنَّ المجانسة من دواعي الانضمام، فالخبيث لا يكاد يألفُ غيرَ جنسه، والطيِّب كذلك، وهو بمعنى قولهم: وكلُّ إناء بالذي فيه ينضح"[1]، فالكلام المستأنف هنا مَسوقٌ لبيان سنَّة الله في خلقه، في أن يسوق كلَّ صنف إلى صنفه، وأن يقع كلُّ طير على شكله"[2]، فـ"التَّناسب شرطٌ في التضامِّ والتعاون، لا سيَّما في الازدواج بالنِّكاح"[3].

سرُّ الوصفِ بالخُبث صفةً مشبَّهةً:

الخبيثُ لا يصدرُ منه إلّا كلُّ قبيح

جاء الوصفُ بمعنى الخبث في قول الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾ على وزن فعيل: (خَبيث)، وهو من أوزان الصِّفة المشبَّهة، التي تدلُّ على الثُّبوت واللُّزوم، فإنَّ صفة الخبث لاصقةٌ بأصحابها لصوقًا يجعل كلَّ ما يصدر عنهم من فعل أو قولٍ قبيحًا خبيثًا.

فالكلماتُ والفِعلات ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ لا يقولُها، ولا يرضاها إلّا الخبيثونَ من الناس، فهي لهم، وهم لها، أو الكلمات والفِعلات ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ لا تليق، ولا تلصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إلّا بـ(الخبيثين) من الناس، فهي لهم، وهم لها، أو ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من النِّساء لا تكون إلّا ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ من الرجال، والعكس كذلك[4]، فهنَّ لهم، وهم لهنَّ؛ ضربةَ لازبٍ ثبوتًا ودوامًا، وهذا مفهومٌ من طبيعة الصفة المشبَّهة على وزن فعيل (خبيث).

دلالةُ جمعِ الوصف بالخبث وتعريفِه:

الأرواحُ المتعارفةُ يأتَلِف بعضها مع بعض

جاء وصفُ الخَبيثين والخبيثاتِ مجموعًا في قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ﴾؛ ليَشمَل الحكمُ كلَّ من

(1) الصاوي، حاشية الصاوي: 3/ 111.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 587.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 312.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 175.

كان بتلك الصِّفةِ، والتَّعريف يجوز أن يكون تعريفَ عهد، أي: إنَّ هناك نوعًا من الخبيثات والخبيثين معهودون بتلك الصِّفة، فيحِنُّ كلٌّ إلى ما يشاكله؛ لأنَّ شبيهَ الشَّيء منجذِبٌ إليه.

سرُّ تقديمِ ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ على ﴿لِلۡخَبِيثِينَ﴾:

مُـراعـاةُ مَـقـامِ تبرئةِ الصِّدّيقة وسائر المحصنات

حين يقدِّم القرآنُ كلمةً على أخرى، يُراعي الفكرةَ المقصودة من السياق الذي استدعى هذا التقديم، ولمّا كان المقصودُ براءةَ الصِّدّيقة بنت الصِّدّيق ﷺ؛ كان تقديمُ صفة الإناث ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ أولى من تقديم صفةِ الذُّكور ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ﴾؛ لأنَّ غرضَ الكلام الاستدلالُ على براءة عائشةَ وبقيَّة أمَّهات المؤمنين، وسائر المؤمنات العفيفات[1].

توجيهُ الوصفِ بالخُبث:

الـخـبـثُ صفةٌ يـوصـف بـها الأشـخـاص والأفعال

يجوز في قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ أن يرادَ بالخبيثات الكلمات التي صيغ منها الإفكُ، فيكون الكلامُ مجازًا بالاستعارة التصريحيَّة[2]، أي: إنَّ السياق استعار خُبْثَ الأشخاص لخبث الكلمات، والجامع بينهما: الإيذاءُ المترتِّب على كلٍّ من الطرفين.

لكنَّ الرّاجح أن يُراد بالخبيثات النِّساءُ، وبالخبيثين الرِّجالُ، فالخبيثةُ من النِّساء تنزع إلى الخبيث من الرِّجال والعكس كذلك، فيكون قريبًا من قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ [النور: 3][3]، وعلى هذا تكونُ صفة الخُبث على حقيقتها.

والظاهر أنَّ الأسلوبَ حقيقيٌّ في الاعتبارين، سواءٌ كان المرادُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 588.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 27.

بالخبيثات النِّساءَ أم الكلمات؛ لأنَّ اللُّغةَ تسوِّغ وصف الأشياء غير العاقلة بالخبث، فيجوز أن يوصفَ القولُ أو الكلمة بالخبث والرداءة، يُقال: "قَدْ خَبُثَ الشَّيْءُ خَباثَةً، فهو خبيثٌ، والخَبيثُ: نعتُ كلِّ شيءٍ فاسدٍ"[1].

بلاغةُ التَّعريضِ:

الخُبثُ قرينُ النِّفاق

في قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ تعريضٌ بالمنافقين المختلِقين للإفك، وأنَّ ما أفِكوه لا يليق مثلُه إلّا بأزواجهم[2]، وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى براءة عائشةَ ﵂، فيُلاحَظ أنَّ الأسلوبَ التعريضيَّ أدَّى معنيَين: معنًى ظاهرًا أدَّته العبارة، ومعنًى خفيًّا فُهِم بطريق الإشارةِ، فجملة التعريض مكثَّفة موجَزة.

بلاغةُ الإطنابِ بعطف: ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾:

لا ينبغي للأخيار مُعاشرة الأشرار

في عَطْف ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ على قول الحقِّ جلَّ شأنه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ نوعُ إطنابٍ، والغرض منه: "مزيدُ العناية بتقرير هذا الحكم، ولتكونَ الجملة بمنزلةِ المَثَل مستقلَّةً بدلالتها على الحكم، وليكونَ الاستدلالُ على حال القرين بحال مقارنه، حاصلًا من أيِّ جانبٍ ابتدأه السامع"[3].

علَّةُ تقديم وصف الخُبثِ على وصف الطيّب:

تأخيرُ الفاضل لمصلَحةٍ عارضة

قُدِّمَ وصفُ الخُبثِ على الطيِّب في قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾؛ لأنَّ الخُبْثَ مناسِبٌ للفعلة الخبيثة التي اتُّهمت بها الحَصانُ الرَّزان عائشةُ ﵂.

ويجوز أن يكون تأخيرُ وصفِ الطّيب من أجل أن يتأتّى عَقِبَ

(1) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح: (خبث).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.

الوصف الإشارةُ بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾، ولو قدَّمَ وصف الطَّيّب، وأخَّر وصف الخبثِ؛ لم يكن للإشارة موقعٌ بعدها، أو تفصِل جملة الإشارة وتوابعِها بين الوصفين - الطَّيّب والخبث - فيبهت معها معنى المقابلة البديعة، التي ميَّزت تمييزًا واضحًا بين الصِّنفين، فيذهب رواء الفكرة، وتختفي العبرة.

بلاغةُ الإطنابِ بعطف ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾:

في عَطْف ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ على قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ إطنابٌ، والغرضُ منه زيادةُ العناية بتقرير هذا الحكم، وبهذا التَّكرار أيضًا تكون الجملةُ بمنزلةِ المَثَلِ تستقلُّ بدلالتها على الحكم، ويكون الاستدلالُ على حال الصّاحب بحال مُصاحِبهِ حاصلًا من أيِّ الطَّرفين ابتدأه المتأمِّل[1].

الأرواحُ جنودٌ مجنَّدة

بلاغةُ القصرِ في الآية:

في جملتَي الوصف بالخبث والوصف بالطَّيّب من قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ قصرٌ مفهوم من تعريف طرَفَي كلِّ جملة، والقصرُ - كما عند البلاغيّين - حصرُ الصِّفةِ في موصوفها، لا تتعدّاه إلى غيره، حقيقةً أو ادِّعاءً، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ قصرُ النِّساء الخبيثات على الرجال الخبيثين؛ إذا عَدَدنا أنَّ المقصود من الخبيثات النِّساء لا الكلمات، ويكون المعنى أنَّه "لا يمكن أن يكنَّ أزواجًا إلّا للخبيث من الرِّجال، إذا لا يَقدُم عليهنَّ إلّا مثلُهنَّ، وكذلك كان القصر في الجملة الثانية ﴿وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾، أي: انحصر زواجُ الخبيثين في الخبيثات من النساء، أي: لا ترضى بواحد منهم زوجًا لها، تجتاز معه مرحلة الحياة إلّا الخبيثاتُ من النِّساء، فلا ترضى شريفةٌ طيّبة برجل خبيثٍ

الشَّيء يحنُّ إلى ما يشاكله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.

النَّفسِ والقول والعمل"[1]، وإذا اعتبرنا أنَّ المراد بالخبيثات الكلماتُ الخبيثة، يكون قصرُ الكلمات الخبيثة على الرجال الخبيثين.

وعكسُ الموصوفين بالخبث كذلك، أي: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ "هو أيضًا فيه قصرٌ بتعريف الطَّرفين، أي: إنَّ الطيّبات من النِّساء لا يقبلنَ إلّا زواج الطَّيّبين؛ لأنَّ الطَّيّبة الكريمة لا ترضى أن تكون فِراشًا إلّا للطَّيّب الكريم، ولا يرضى ذووها إلّا بكريمٍ طيّب ذي خلق ودين"، والطَّيّبون ذوو الأخلاقِ الذين لا يختارون إلّا كريمةً ذات خُلقٍ ودين"[2].

وهذا ما يسمّى في غير القرآن بالقصر الادِّعائيِّ، وتأدُّبًا مع كلام اللّه ﷻ يسمّى في القرآن قصرًا غيرَ حقيقيٍّ؛ لأنَّ المرأةَ الخبيثة قد تتزوَّج من الطَّيّب والعكس كذلك، والكلمة الخبيثة قد تصدر من الطَّيّب بغير قصد، أو عن غفلة عارضة، والكلمة الطيّبة قد ينطِق بها الخبيث ...، فخرج القصر عن كونه حقيقيًّا، لكن إذا حدث هذا، فإنَّه يكون من النّوادر التي لا يُقام لها وزن، فلا يعتدُّ بها؛ فينبغي أن يقع الزواج بين الأكْفاء، فالطيور على أشكالها تقع، وشبيه الشيء منجذب إليه.

بلاغةُ الحذفِ في الآية:

المَنوطُ بالحكم أولى بتعجيل ذكرِه

أوصافُ الخبثِ وأوصاف الطّيب في قول الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾ جرت على موصوفاتٍ محذوفة يدلُّ عليها السياق، والتَّقدير في الجميع: الأزواج[3].

وبلاغةُ حذفِ الموصوفات تكمُن في التَّعجيل إلى دخول الصفة، فهي المقصودةُ من السياق، وأنَّ الأحكامَ قائمة على تلك الصِّفات،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5173.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5173.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 194.

فذِكْرُ الموصوفِ معها لا يزيدُ المعنى شيئًا، فيصيرُ عِبئًا ثقيلًا على الكلام، فترتخي العبارة ارتخاءً يذهب بروائها، ومن طبيعة البلاغة العربيَّة أن تحذف ما يدلُّ عليه الكلام، ويشير إليه النظام، ثمَّ إنَّ هذا الحذفَ لا يترك في الكلام غموضًا، فكان حذفُ الموصوف أولى من ذكره.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

أهـلُ الفضلِ أولى بالتَّمييز والتكريمِ

اسمُ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ فيه معنى البُعد، للإيذان بعلوِّ رتبة المُشار إليهم، وبُعد منزلتِهم في الفضل، أي: أولئك الموصوفون بعلوِّ الشَّأن مبرَّؤون ممّا يقوله أهلُ الإفك في حقِّهم من الأكاذيب الباطلة"[1]، فهم بعيدون كلَّ البعدِ من اقتراف السوءِ، وجوَّز الزمخشريُّ أن تكون الإشارةُ إلى الطيّبين، وأنَّهم مبرَّؤون ممّا يقول الخبيثون من خبيثات الكلم، ويجوز أن تكون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى أهل البيت، وأنَّهم مبرَّؤون ممّا يقول أهل الإفك[2].

ويجوز أن يكون الغرضُ من الإشارة هو تمييز المشار إليه أكملَ تمييزٍ، لتحديده والتركيز عليه، ليكون الحكمُ عليه بالبراءة أظهرَ.

سرُّ إيثارِ الوصف ﴿مُبَرَّءُونَ﴾:

إنَّ اللهَ يُدافِعُ عنِ الَّذين آمنوا

جاء لفظُ ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ على أحسن صيغة، وأتمِّ هيئة، وأدقِّ دلالة، فصيغتُه اسم مفعول من الفعل (برَّأ)، والبراءة تعني التَّنزيهَ والبعد من ارتكاب الفعل، فاسم المفعول يدلُّ على عظم البراءة؛ لأنَّهم لم يقوموا بتبرئة أنفسهم، بل الذي برَّأهم المطَّلعُ على خفيّات الأمور ﷻ، فالتَّبرِئَةُ منه أجلى، ثمَّ إنَّ الصيغةَ جاءت للتذكير، والمراد تبرئةُ عائشة رضي الله عنها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 167.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 225.

وصفوان، أو زوجات النبيِّ ﷺ، وهذا من باب تغليب جماعةِ الذُّكور على جماعة الإناث[1].

دلالةُ (مِن):

تجلية البراءة تُناسب المبرَّأة

(من) في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ بيانيَّةٌ، فهي تبيِّن نوعَ القول والفعل الذي اتُّهموا به، لتكون البراءةُ من هذا الأمر جليَّةً واضحة، فلا تترك ثغرةً تدخل منها الظُّنونُ، أو مَجالًا تسرح فيه الأوهامُ، وهذه هي البلاغة القرآنيَّةُ التي تجعل الاحتراس سبيلًا لدحض مزاعم الزاعمين.

دلالةُ (ما):

لا اعتداد بقذف المنافقين وكذب الأفّاكين

في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ يجوز في (ما) أن تكون موصولةً، بمعنى الذي، وصلتها الفعل المضارع ﴿يَقُولُونَۖ﴾، ويكون المعنى: أولئك مبرَّؤون مِنَ الَّذي يقوله الأفّاكون، ويجوز أن تكون مصدريَّة، أي: أولئك مبرَّؤون من قولهمُ الإفكَ، و(ما) في الحالين تكشِف عن عدم الاعتداد بقولهم، وأنَّه لا يستحقُّ أن يُذكر صراحة؛ لأنَّه من مجرَّد قولٍ قذَفَ به لسانُ الخرّاصين، وليس له أدنى صحَّة.

دلالةُ المضارع ﴿يَقُولُونَۖ﴾:

أمُّ المؤمنين منزَّهةٌ إلى يوم الدّين

جاء التَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَقُولُونَۖ﴾ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾؛ استحضارًا لقولهم وإفكهم العجيب، وزيادةً في التبشيع والتشنيع عليهم، وقد يُراعى في المضارع معنى التجدُّدِ؛ لذا أُسنِدَ المضارع إلى ضمير الجمع، ليشمل كلَّ خائضٍ ينال من أمِّ المؤمنين، بَلْهَ المحصناتِ المؤمنات، حتّى قيام الساعة، فيكون فيه تنزيهٌ لكلِّ طيّب وطيّبة، تقدَّم زمانهم أو تأخَّر.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.

بلاغةُ العدولِ في قوله: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾:

القولُ الكاذبُ يُبطِلُهُ البيانُ الناصع

ولمّا كان الحديث المبَرَّأُ منه مجرَّدَ حديثِ لسان، دون أن ينعقدَ عليه الجَنان؛ عدلَ التَّعبيرُ عن ذكره صراحةً، ليبيِّنَ أنَّه كان مجرَّدَ أقوالٍ تناقلته الأفواه الكاذبة، فقال الله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾؛ إشارةً "إلى أنَّه لا يعدو كونَه قولًا، أي: إنَّه غيرُ مطابقٍ للواقع"[1].

بلاغةُ تقديمِ شِبهِ الجملة ﴿لَهُم﴾:

التَّأكيدُ على براءة الحَصان الرَّزان

تقديمُ شِبه الجملة ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يسلِّطُ الضوءَ على من تكون لهم المغفرةُ والرزق الكريم، اهتمامًا بهم، واعتناءً بحالهم، فالتَّركيز عليهم بتقديم ضميرهم، يتوافق تمامًا مع التركيز عليهم بالإشارة إليهم في الجملة السابقة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، لتتأكَّد في النُّفوس نزاهتهم.

وفي التقديم تشويقٌ إلى المؤخَّر – المغفرةِ والرزق الكريم – لتقرَّ للطَّيّبين أعينُهم، ويتبدَّد للخائضين اتِّهامُهم، فمن كان له هذا الفضل؛ فأنّى تأتيه الفاحشة؟

دلالةُ المغفرةِ وإيثارُها في السياق:

مكافأةُ الله سبحانه للطَّيّبين والطَّيّبات

اللّافتُ في سياق قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أنَّ الله وعدَ عائشة رضوان الله عليها – والطَّيّبين – بالمغفرة، مع أنَّه لم يتعلَّق بذيلها أدنى ريبةٍ، والمغفرة توحي بأنَّ هناك ذنبًا وقع، ولذلك فُسِّرت المغفرة في هذه الآية بالبراءة، أي: لهم براءةٌ من الله ورسوله، ورزقٌ كريم في الآخرة[2]، فعلى هذا، يكون في اللَّفظ مجازٌ، حيث استُعيرت المغفرة للبراءة، والجامعُ بينهما معنى التَّغطية، فالمغفرةُ مشتقَّةٌ من الغَفْر، وهو التغطية، فغَفَرْتُ المتاع: جعلته في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 195.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 355.

الوعاء[1]، والبراءة فيها معنى تغطيةِ الله عائشةَ والطَّيِّبين من أن ينالهم ما يريب، فعلى هذا يُسوَّغ القولُ بالاستعارة.

ويجوز أن يكون اللَّفظُ على حقيقته، وتكون المغفرةُ "بسبب ما قيل فيهم من الكذب"[2]، فعلى هذا، تكون المغفرةُ في الآية تفضُّلًا من الله ﷻ، لا لذنب ارتُكب، وإنَّما بسببِ ما نالهم من تكديرٍ، "فالله تعالى يغفر لهم مِنَ اللَّمم وبعضِ السيئات بسبب القذفِ الآثِم لهم، فإنَّه ينتقص من سيئات المظلوم بمقدار اعتداء الظّالمين"[3].

ولفظُ المغفرة قد يوجَّه إلى قول الخُبث، وعليه تُحمل المغفرة على حقيقتها، وتكون مبنيَّةً على وقوع الشَّرط، ويكون المعنى: "الطيّبون من الناس مبرَّؤون من خبيثات القول؛ إن قالوها، فإنَّ الله يصفح لهم عنها، ويغفرها لهم، ولهولاءِ الطَّيّبين من الناس مغفرةٌ من الله لذنوبهم والخبيثِ من القول؛ إن كان منهم"[4].

بلاغةُ الفصلِ والوصل في الآية:

الفصلُ والوصلُ مرتبطٌ بالمعاني القرآنيَّةِ

الجملُ المتعدِّدةُ في الآية عُطِفَ بعضُها على بعض: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ﴾، وسرُّ الوصل بين تلك الجملِ هو التوسُّط بين الكمالين، حيث اتَّفقتِ الجمل الموصولة في الخبريَّة لفظًا ومعنى،

أمّا جملة ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ فُصِلَت عمّا قبلها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ﴾، وسرُّ الفصل هو شِبه كمال الاتِّصال، المسمّى بالاستئناف البيانيِّ، حيث أثارت جملة الإشارة المثبتةُ للتبرئة سؤالًا: وما جزاؤهم حين برَّأهم الله؟ فجاءت الجملةُ جوابًا على هذا السُّؤال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

(1) الجوهري، الصحاح: (غفر).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 35.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5174.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 238 - 239.

إيثارُ لفظِ الرِّزق:

وعدُ اللهِ عائشةَ بالفضل الممتدِّ غيرِ المنقطع يوم القيامةِ

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ الرِّزقِ دون غيرِهِ في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ لِما فيه من الثراء المعنويِّ، والدلالات المتعدِّدة التي تتناسب مع جزاء أولئك المبرَّئين، فالرِّزق يُطلَق في اللغة على العطاء الجاري تارةً - دنيويًّا كان أم أخرويًّا - ويُطلق على النَّصيب تارةً، يقال: أعطى السُّلطان رِزْقَ الجندِ، أي: نصيبهم[1]، ويطلق على الشُّكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: 82]، أي: وتجعلون شكرَ الله على رزقِهِ إيّاكم التَّكذيب[2]، أو يرجع في هذه الآية إلى معنى النَّصيب، أي: تجعلون حظَّكم التَّكذيب.

فلمّا كان الرزقُ يُطلق على العطاء الأخرويِّ الممتدِّ الذي لا ينقطع، ويطلق على النَّصيب والحظِّ، ويطلق على الشُّكر؛ كان إيثارُ السياق له أولى من النَّظائر التي لا تحمل هذا الثراء، فلفظةُ الرِّزقِ توحي بكرم الله الواسع الذي يُغدِقهُ على عائشةَ؛ نتيجةَ صبرها وصبرِ زوجها المعصوم ﷺ على هذا الإيذاء.

بلاغةُ وصف الرِّزق بالكريم:

رزقُ الكريم لأمِّ المؤمنين جزيلٌ عَميم

وصْفُ الرِّزقِ بالكرَم في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ زاد الرِّزقَ تعظيمًا، فهو "بمعنى النَّفيس، فهو وصف حقيقيٌّ للرزق، وفعله كَرُمَ بضمِّ العين، والكرم في كلِّ شيءٍ الصفات المحموديَّة في صنفه أو نوعه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النَّمل: 29]، ومنه إطلاقُ الكرم على السَّخاء والجود، والوصف منه كريم.

وتصحُّ إرادتُه هنا على أنَّ وصف الرزق به مجازٌ عقليٌّ، أي: كريم رازقُهُ، فإنَّ الكريم يرزق بوفرة وبغير حساب"[3]، فالكريمُ

(1) الراغب، المفردات: (رزق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 22/ 368.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 263.

"من صفات الله وأسمائه، وهو الكثيرُ الخيرِ الجواد المُعطي، الذي لا ينفَد عطاؤه، وهو الكريم المطلَق، الجامع لأنواع الخيرِ والشَّرف والفضائل، والكريم اسمٌ جامع لكلِّ ما يُحمد، فالله ﷻ كريمٌ حميدُ الفعال، وربُّ العرش الكريم العظيم"[1].

سرُّ تنكيرِ اللَّفظين ﴿مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ﴾:

عطاءُ اللهِ للمؤمنين غيرُ مَجذوذٍ

كان لتنكير المبتدأ وما عُطف عليه في قول الله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أثرٌ بالغ في تأدية معنى الوعد والبشارة، فقد أضفى على الكلام تعظيمًا فوق تعظيم الدلالة اللغويَّة، فهي مغفرةٌ عظيمة لا تُدرك صفتها، وكرم بالغ، ورزق رابغ، لا يُكتنه كنهه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التبرئة والتنزيه:

أحرى بأمِّ المؤمنين أنْ يُنفى عنها التُّهمة التي رُميَت بها

الأصلُ في التَّبرئة أن تكون تنزيهًا من شيء علِق بصاحبه، تقول: برِئْتُ منك، ومن الديون والعيوب براءةً، وبرِئْتُ من المرض بُرْءًا، وأبرأَهُ الله من المرض، وبرَّأْتُه تبرئةً[2]، أمّا التَّنزيهُ؛ فلا يُشترط فيه أن يكون المنزَّهُ قد علِق به شيء، يقال: نَزُهَ نَزاهةً، وتَنَزَّهَ تنَزُّهًا؛ إذا بَعُدَ، ورَجُلٌ نَزْهُ الخُلُقِ ونَزِهُهُ ونازِهُ النَّفْس: عَفيفٌ متكرِّم، ونَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ القبيح: نَحّاها، ونزَّه الرجل: باعَدَه عن القبيح، ورَجلٌ نزيهُ الخُلق: بعيدٌ عن المطامع الدَّنيَّة، فالنَّزاهة: البُعدُ عن السّوء[3].

فلمّا كانت التَّبرئةُ في نفي العيب والتُّهمةِ؛ كانت أليقَ بهذا السياق الذي يبرِّئ عائشةَ ﵂.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كرم).
(2) الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية: (برأ).
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (نزه)، وابن منظور، لسان العرب: (نزه).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»